

قضايا التأويل في الفكر المعاصر-قراءات في المرجعيات الهرمنيوطيقية Issues of Interpretation in Contemporary Thought – Readings in Hermeneutic References

د. علي عبو إلياس*
جامعة-جبلالي اليابس (الجزائر)
Iliasaliabbou8@gmail.com

تاريخ النشر: 2025/12/26

تاريخ القبول: 2025/12/03

تاريخ الاستلام: 2025/03/19

ملخص:

يسعى هذا المقال الموسوم بقضايا التأويل في الفكر المعاصر-قراءات في المرجعيات الهرمنيوطيقية- إلى رصد ومعالجة وفهم ملامح وخصائص وطبيعة الظاهرة التأويلية عند النقاد والمفكرين والفلاسفة الغربيين، مستنبطين من تحليلاتهم وتقصيهم لها ما اهتموا إليه من استنتاجات شرحت حقيقة فعل التأويل أو ما تسمى بعملية فهم الفهم، ومن الشائع عند النقاد الغربيين أصحاب المناهج المعاصرة أنه لا يخلو عمل أدبي أو نص إبداعي من جملة معاني وزخم من الدلالات الكامنة خلف السطور حيث أنها لا تظهر إلا بفعل العملية التأويلية التي يمارسها القارئ المؤول.

الكلمات المفتاحية: فهم الفهم؛ فعل التأويل؛ القارئ المؤول؛ قراءات في المرجعيات الهرمنيوطيقية؛ الفكر المعاصر.

Abstract:

This article, titled Issues of Interpretation in Contemporary Thought – Readings in Hermeneutic References, seeks to examine, analyze, and understand the features, characteristics, and nature of the interpretive phenomenon as addressed by Western critics, thinkers, and philosophers. By exploring their analyses and investigations, the study extracts the conclusions they have reached regarding the essence of the act of interpretation, also known as the process of "understanding." It is commonly held among contemporary Western critics that no literary work or creative text is devoid of multiple meanings and a richness of implicit connotations that remain hidden unless revealed through the interpretive process undertaken by the interpreting reader.

Keywords: Understanding; act of interpretation; interpreting reader; readings in hermeneutic references; contemporary thought.

1. مقدمة:

إنَّ التأويل بوصفه فعلاً ذهنياً يحاول إدراك المعنى حين يكون خفياً وملتبساً أو توجيه المعنى الأكثر مناسبة للسياق أو المقام حين يكون الدليل المدرك متعدد المعاني، فهو ملكة ملازمة لكل فعل إدراك لكن هذا لا يعني أن التأويل خاضع لمعايير ثابتة يظل بموجبها هو نفسه لأنه يتغير من متلقي إلى آخر، سواء أعلق الأمر بإدراك لنفس الشيء أو لأشياء مختلفة. فيكون القارئ المؤول استناداً إلى ما تقدم هو مرتكز القراءة التأويلية التي تهدف إلى كشف المقاصد الدلالية التي تستتر خلف السطور، فالقارئ هو بمثابة السلطة التي توجه معاني النص حسب ما يقتضيه من قراءات محتملة منه تحددها الأبعاد الدلالية المنحصرة فيه وهذه الأخيرة لا تنكشف إلا بالقراءة التأويلية وعند وجود القارئ المؤول.

- إشكالية البحث:

ويتفرع مما سبق ذكره عدة إشكالات لعل من أبرزها؛ ماذا نعني بمصطلح الهرمنيوطيقا؟ وكيف فهم المفكرون الغربيون المعاصرون هذا المصطلح في خضم المشارب الثقافية ذات الصلة الوطيدة بنظريات القراءة المعاصرة التي تبنّاها النقاد؟ وما هي خصائص القراءة التأويلية في الفكر المعاصر؟ وما علاقتها بنظريات القراءة؟ وما هي مستويات التأويل في الفكر المعاصر وأسسها وأهدافه؟

- أهداف البحث:

يهدف هذا البحث الموسوم بقضايا التأويل في الفكر المعاصر-قراءات في المرجعيات التأويلية-إلى تسليط الضوء على القراءة التأويلية متقصياً خصائصها وأسسها و أركانها التي تتركز عليها وأهدافها التي تسعى إليها محاولين كشف النقاب عن حقيقتها وعلاقتها بالنص المكتوب والمؤلف والقارئ المؤول مع التعرض لذكر الموازنة التي يكشف بها عن أوجه الاختلاف والاتفاق أو التقاطع بين قضايا التأويل عند العرب القدماء وبين مفهومه وقضاياها عند الغرب وعند المفكرين النقاد المعاصرين.

- أهمية البحث:

تظهر أهمية هذا البحث في كونه يسعى ويصبوا إلى إبراز مظاهر العملية التأويلية والتعرض إلى شرحها وتفصيلها وبيان ماهيتها، وكذلك الإشارة إلى أهميتها وفضلها في استخراج المعنى من النصوص القابلة لأن تخضع للتأويل.

- الفرضيات:

نحاول في هذا البحث رسم فرضيات النقد والفلاسفة والأدباء المعاصرين في فهم ورصد الحقيقة من فعل التأويل ومعالجة أقوالهم ومناقشة آرائهم بإبداء وعرض أفكارهم مفصلين وشارحين ومحللين إيّاه، وموازنين مقارنين بينها مستبعدين من الأقوال ما خالف وجانب مفهوم التأويل وتعارض وتنافى مع البعد الذي تنشده العملية التأويلية وذلك بتبيين بطلانها، ومقربين منها ما وافق المفهوم وتواطأ مع ما يسعى إليه فعل التأويل.

- المنهج المتبع:

إنَّ المنهج المتبع الذي يقوم عليه هذا البحث هو؛ المنهج الوصفي التحليلي، لأنَّنا تعرضنا في ذلك إلى وصف الظاهرة التأويلية في معالجة الأعمال الأدبية والمنجزات الإبداعية محلين إياها بالشرح والتفصيل وزيادة في التبيين مع إرداف ذلك بالمنهج المقارن لما كان في الأمر من الموازنة بين فهم المتقدمين من العرب الأوائل للتأويل وفهم الغربيين له ذاكرين أوجه الاختلاف والاتفاق بين الوعيين المتباينين المختلفين.

قبل أن نسوق للنظر في قضايا التأويل في الفكر المعاصر عند الغربيين قراءات في مرجعياته يجب أن نعرج أولاً عن تعريف لغوي له وعن مفهومه باقتضاب في التراث العربي الإسلامي لأن بين تصور العرب القدامى لهذا المفهوم وبين الغربيين المعاصرين رابط متين ونقاط تلاقي تحمل مقولات كبرى مشتركة بين الوعيين؛ الوعي العربي التراثي والوعي الغربي المعاصر.

التأويل - لغة-: «أول (التأويل)، تفسير ما يؤول إليه الشيء وقد أوله تأويلاً وتأوَّله»¹، وبناء على هذا التعريف اللغوي الموجز يفهم أن التأويل في أصل دلالته هو؛ الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، فيكون الأمر هو؛ أن تأويل الكلام هو عين تحققه ووقوعه وحصوله ومنه قوله-جل وعلا- في محكم تنزيله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾.

ومن الآية الكريمة يستفاد أن تأويل الخبر من الكلام هو عين المخبر به فيه ومما ورد أيضاً من هذا قول عائشة-رضي الله عنها-:- «كان النبي عليه الصلاة والسلام يتأوَّل القرآن، فكانت تعني امثالَه لقوله-جل وعلا- في محكم التنزيل: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾».

فيستفاد كذلك أن تأويل الأمر هو عين المأمور به في الكلام والمتحقق والمحدث والحاصل في الخارج.

وذهبت ثلة من علماء العرب أن التأويل هو؛ الكلام الذي يُفسَّرُ به اللفظ حتى يفهم معناه، فيكون التأويل بهذا المفهوم عند العرب المتقدمين هو الشرح والتبيان وإيضاح ما استشكل من الكلام لأجل استظهار مقصوده وغاياته فيكون بهذه الدلالة عندهم مرادفاً لكلمة التفسير وهو كذلك الشرح والبيان اللذان يعدان من لوازم هذا الأخير.

وبعد تأثر العرب القدامى بالحضارات الوافدة مما كان سبباً كبيراً في تلاقح وتزاوج العقل العربي الإسلامي بالعقل الوافد لاسيما الحضارة اليونانية، أخذ هذا المصطلح منحى آخر وتوجيهاً من حيث تعريفه مبيناً لما ذكر وذلك لما حمله من خلفية كلامية استمدت وجودها من فلسفة الإغريق وانبثقت منها حيث تحول من التعريف البسيط المتداول عند المتقدمين إلى التعريف المركب المحمل بالمرجعية الفلسفية والمصطبغ بالصبغة الفكرية الوافدة من الحضارة اليونانية على الحضارة العربية، حيث صار مفهومه هو؛ صرف الكلام عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقتزن به، وهذا الدليل أو القرينة التي تحتف بالكلام هي التي تصير المعنى المراد الخفي من الكلام والباطن فيه راجحاً بعد أن كان مرجوحاً وتجعل المعنى الظاهر منه البادي فيه مرجوحاً بعد أن كان راجحاً. واستناداً إلى ما تقدم يصير مفهوم التأويل هو؛ صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر خفي يحتمله اللفظ إذا قامت القرائن

مقام ذلك أو العدول عن ظاهر اللفظ إلى المعنى الباطن أو هو الترجيع أي؛ الرجوع عن ظاهر اللفظ أو هو؛ إخراج اللفظ عن ظاهره وتوجيهه إلى المعنى الخفي المحتمل منه الذي يستلزمه الكلام نفسه أو هو سحب اللفظ عن ظاهره إلى ما خالف ظاهره من الكلام، وهذا المفهوم الأخير عند العرب المتقدمين يتقاطع مع المفاهيم الغربية لهذا المصطلح؛ التأويل أو الفعل التأويلي، وذلك أن الأول يبحث عما خفي من المعاني والدلالات والمقاصد التي يحتملها النص وخاصة الخطابات الإبداعية ويسعى المفهوم الثاني كذلك عند الغربيين المعاصرين إلى استظهار المعاني التي تختبئ خلف السطور مع مراعاة ما يحتف حولها من القرائن وقدرة القارئ المؤول على تكييفها مع النص المقروء والاعتماد عليها من أجل لي عنق الخطاب وتأويله وتخرج معانيه المحتملة بتوجيه هذه القرائن نحو المقاصد التي يريد هذا النص وإن كانت محتملة، ومن هنا فلا يخرج التأويل عن دائرة الاحتمال الذي يعضده دليل يصير به أغلب على الظن مما يدل عليه الظاهر ويشبهه في أن يكون كل تأويل هو صرف للفظ عن الحقيقة إلى المجاز من جهة الصرف لأن التأويل على خلاف المجاز فالأول الاحتمال فيه من غير ترجيح أو قد يترجح أحد المعاني لكن دون إلغاء المعنى الأول أو هو عبارة عن عدة احتمالات غير مقصود واحد منها وهي تتفاوت بحسب درجة القوة والضعف أو قد تستوي فلا يمكن الترجيح والثاني فلا يحتمل منه إلا المعنى المجازي لقوة القرينة وهو قطعي الدلالة لا ظني الدلالة.

2. الهرمنيوطيقا:

إن هذا المصطلح ينحصر في معنى الشرح والتفسير والترجمة والتأويل، فهي «تدل من خلال الحقل الدلالي الذي يغطيه المصطلح الإغريقي على معاني: التعريف والشرح والترجمة والتأويل والتعبير»²، فهي في أصولها الأولى عند النظر إلى جذورها المعرفية والتبصر في خلفياتها الثقافية وإمعان الفكر والتدبر في أسسها العلمية والإحاطة بمرجعياتها المفاهيمية لا تخلو مما ذكر في الحد، ولكن «قد تطورت الفعالية الهرمنيوطيقية بوصفها تأويلا وتفسيرا لنصوص خاصة... لتأخذ شكل القراءة الاستعارية وهكذا، وقد شكل هذا السبيل تجاوزا للتحليل النحوي والبلاغي عن النوايا العميقة للمؤلفين»³، ويعرفها- هانس جورج غادامير-: «بأنها تشير إلى الفن بالمعنى الاستعمالي التقني لآليات ووسائل لغوية ومنطقية وتصويرية واستعمالية ورمزية»⁴، وتهدف هذه الأخيرة في إجراءاتها عند معالجتها للنصوص الأدبية والخطابات الإبداعية والمنجزات الثقافية والأعمال الفكرية إلى زعزعة البنية المغلقة والثورة على سكونية المعنى كما لوحظ عند التفكيكيين وعند منظري لآليات القراءة التأويلية في فهم النصوص وكشف النقاب عن مغازيها والبحث في حفراتها لاستخراج الترسبات الدلالية من وراء هذه السطور لأن «النص الواحد بإمكانه أن يقول أثر مما تدل عليه ألفاظه مباشرة»⁵ على حد تعبير الفيلسوف الإيطالي- إمبرتو إيكو- ونعزز ذلك بقول- بول ريكور- واصفا هذا الإجراء ومشيرا بوصفه بالتضمن إلى اختلافها عن النبوية التي هي عبارة عن نسق مغلق من العلامات حيث ذكر: «ليس في الأمر انغلاقا على عالم العلامات، بينما نجد الألسنية تتحرك في نطاق عام مكثف بذاته ولا تلتقي إلا بعلاقات تبادل الدلالة، أما هذه العملية التأويلية فتتميز بفتح عالم من العلامات»⁶ فكلامه يشعر بوجود النص المفتوح وأنه لا انغلاق على المعنى في

الخطابات الإبداعية والأعمال الأدبية، «لذلك لم يتردد هذا المفكر في وصف البنيوية بأنها نزعة تعالي على الذات»⁷.

3. الهيرمينوطيقا والنشأة:

تعود المفاهيم الأولى لهذا المنهج في قراءة وفهم وتحديد الأبعاد الدلالية للنصوص إلى الأصول الفكرية والفلسفية والعقلية القديمة النشأة الشائعة في النقد الأدبي المعاصر والفكر الحديث لتبني الكثير من النقاد والمفكرين المعاصرين لهذا المفهوم، حيث يعد هذا الأخير كم أقر ذلك الدكتور-محمد عميش- من المصطلحات القديمة الجديدة. فقد ظهر استعماله في عهد اليونان وعند أفلاطون وامتدت استعمالاته إلى العصر الحديث. واستخدم قديما في الدراسات اللاهوتية ليشير إلى مجموعة من القواعد الضرورية التي لا بد منها لفهم النص الديني. أي الكتاب المقدس، وهي بهذا المفهوم تشير إلى نظرية التفسير ويعود قدم المصطلح على هذا المعنى إلى عام 1654م وما زال مستمرا حتى اليوم ولكن هذا المنهج ما فتى يحتل مجالات أخرى غير المجال اللاهوتي الذي وجد من أجله. فقد ظهر في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا وفلسفة الجمال والنقد الأدبي. وبذلك توسعت مجالات استعماله، واتخذ مفهوما أشمل تمثل في نظرية جديدة هي: نظرية تفسير النصوص الأدبية ومنه فإن هذه العملية القرائية في تعيين مقاصد الأعمال الإبداعية والمنجزات الفنية إذن هي: منهج معرفي يسعى للكشف عن سبل إجرائية تحدد العلاقة الخفية والظاهرة في الوقت نفسه، التي تربط المتلقي المؤول بالنص بصفته خطابا وجد ليؤول، وبالمؤلف الغائب الحاضر في نصه الذي صار في دائرة ملكية القارئ، ومن هنا فإن القارئ المؤول يشكل دورا فعالا ومهما في عملية القراءة التأويلية من أجل تحديد معاني النصوص وما تصبوا إليه الخطابات الإبداعية وكذلك فهم المنتجات الأدبية والفكرية والفلسفية.

4. الفرق بين البلاغة والهيرمينوطيقا:

يرجع الكاتب الناقد-عمارة ناصر- المباشرة بينهما إلى عدة فروقات أثبتتها في كتابه الموسوم-بالهيرمينوطيقا والحجاج- وهي أن البلاغة: تقوم بدراسة الخطاب بدءا من انطلاقه في اللغة وصولا إلى تقبله من طرف المتلقي، بينما -يقوم هذا المفهوم بتحليل مسألة الفهم عبر الخطاب، ويمكن تحديد الفرق بينهما من الناحية التاريخية في مسارين كانا قد انفصلا ليتقاطعا ثم تقاطعا لينفصلا، فقد ظل اشتغال البلاغة على الخطاب مرتبطا لفترة طويلة بطابعه الاجتماعي والحواري المفتوح على الآخر الضمني بوصفه شريكا ضروريا في بناء الخطاب نفسه، بينما أقامت هذه العملية التأويلية وضعها المعرفي على العملية بين ذاتية بوصفها عملية تقود الذات إلى موضوعها لتعود إلى الذات نفسها فيتحقق فهم الذات من خلال وساطة الموضوع دون شريك هو الآخر المغاير، حيث نصل إلى تقاطع مشتركين: مشاركة بالحجة (البلاغة) ومشاركة بالفهم (التأويل)، واستنادا إلى هذا القول يستفاد منه أن البلاغة منحصرة في تحليل الخطابات الإبداعية والنصوص الأدبية ومدار إجرائها موقوف على معرفة الأساليب التي تبني بها المنجزات الثقافية والأعمال الفنية وتحليلها ومعالجتها بالتفصيل انطلاقا من اللغة نفسها التي تعتبر مادة الخطاب ووصولاً إلى حقيقة المعنى عبر قناة بلاغة الأسلوب في توجيه المراد لأن جمال الأساليب هي المنفذ الذي

يتوصل به إلى مقاصد المتكلمين، بينما نجد هذا المصطلح مختلفا عن سابقه إذ هو خوض في خضم الدلالات وما يتشظى منها من معاني أو هي تصور كلي عام عن التخارج الدلالية للنص والتي لا تتحقق إلا بالعودة إلى سلطة القارئ وتفاعله مع المنجز الأدبي للوصول إلى المراد عن طريق عملية فهم الفهم مع مشاركة البلاغة لهذه العملية، فهي إذن تخدم القراءة التأويلية.

5. الدائرة الهرمنيوطيقية:

يتصل موضوع فهم الفهم أو التأويل بمفهوم القراءة التي تتفرع منها؛ ما يسمى بتعدد القراءات، لأن القراءة باعتبارها عملية تأويلية تسعى إلى مقارنة النص، تخضع لطبيعة القارئ الذي يقوم بهذه القراءة، إذ تتحكم في تعامله مع النص مجموعة من العوامل التي يتحدد من خلالها فهمه له، وهذا الفهم ليس بالضرورة متفقا مع مقصد الشاعر كما أشار إلى ذلك الدكتور-عبد الله العضيبي- في كتابه المعنون-بالنص وإشكالية المعنى-، وبناء على ما تقدم ذكره يستفاد أن القارئ يؤسس ركنا فعالا وأصيلا في عملية القراءة التأويلية معتمدا على خبرته في التعامل مع النصوص ومن هنا نتهدي إلى أن الخبرة التي يمتلكها القارئ في التعامل مع النصوص تشكل دورا آخرامهما، إذ إن ثمة فروقا بين قارئ وآخر في قدرته على استنطاق النص وسبر أغواره، إذ كلما زادت خبرة القارئ عبر الممارسة، استطاع أن يكشف في النص أبعادا قد لا يتوصل إليها غيره، وباختلاف تصورات القراء للنص الواحد أو المدرك الواحد تنتج عدة مدارك بفعل عملية القراءة التي يمتلكها كل قارئ، فكل واحد من هذا الأخير إلا ويحمل تصورا حول هذا المدرك مستندا في ذلك إلى ثقافته وطاقاته وكيف إياها من أجل فهم هذه الظاهرة التي تقبل التأويل وفي ضوء ذلك فإن النص الشعري الواحد يصبح قابلا لتعدد القراءات التي قد يمنح كل منها النص معنى مختلفا عن ذلك الذي منحتة إياه قراءة أخرى، فتصبح أمانا معان عدة لنص واحد. بل إننا نجد قارئا ما يتعدد لديه المعنى حول نص واحد. وهذا يجعل وقوف القارئ على المعنى الذي يريده الشاعر غير مؤكد.

وعلى هذه المرتكزات الثلاثة؛ النص والقارئ والمؤول يتأسس فعل القراءة الذي تنبني عليه ما يسمى بالدائرة التأويلية ويكون فيها القارئ عمدة في تحقيق عملية التأويل، وبالتالي «تقف هذه العملية لتشكيل دائرة ما يعرف بالدائرة الدلالية أو فعل القراءة. في مقابل ثلاثية التكوين: قصدية الكاتب وقصدية النص وقصدية المتلقي. ومن هذه الأطراف المشكلة لماهية الخطاب تحاول هذه الأخيرة التأسيس لفعل التفسير أو التأويل ولا نغفل في العملية التأويلية عن عامل التاريخ إذ به تتأسس تمثلات المعنى في أذهان القراء المحاورين للنص مرتكزين في ذلك على الوعي التاريخي وما تمليه عليهم المقولات الكبرى المتصلة به في صناعة الدلالة التي يحتملها النص. إذ لا بد للظاهرة التاريخية أن تخضع للاعتبارات التأويلية التي تضفي عليها فهما معقولا كما أثبت ذلك الدكتور-ابن داود عبد النور- مبينا دور هذه الأخيرة في كتابه؛-المدخل الفلسفي للحدث-، فربط النص أو الخطاب بالتاريخ يسهم في إنتاج المعنى وبلوغ المقاصد من المنطوق المكتوب.

6. التفكيكية والهرمنيوطيقا:

تعتبر التفكيكية استراتيجية فعالة في فهم المنجزات الأدبية والفكرية والفلسفية ولي أعناقها وذلك بتقويض أهم الأركان والأسس التي تتغلغل في النصوص وهلهلة مفاهيمه ومقولاته الكبرى وزعزعة فكرة البنية الثابتة وتفتيت النسق المحايث والثورة على سكونية المعنى الأحادي الذي تحدده هذه البنية المغلقة من النص أو الخطاب والمعتمد على هذا المنهج في معالجة النصوص وقراءتها يدفع القارئ الناقد إلى استنباط التراكمات الدلالية الكامنة في المكتوب الخفية تحت السطور لذلك فإن المنهج التفكيكي يتقاطع مع نظام هذا السبيل المتقدم ذكره القاصد إلى تأويل الأعمال والمنجزات القابلة لتعدد المعاني.

دأب هذا الطرح الفلسفي النقدي في إرهاباته الأولى إلى تفكيك العقل البشري أو اللوغوس أو الميتافيزيقا في محاولة لتدمير الفلسفة الميتافيزيقية التي ظل الغرب خاضعا لها زمنا طويلا على أنها حقيقة مطلقة انطلاقا من أرسطو وتعريجا على ديكارت وكانط وهيكل إلى ماركس ونييتشه وفرويد، وعلى هدي هؤلاء الفلاسفة سار-جاك دريدا- مخضعا المنهج على الأدب باعتبار المعنى المتبادر من ظاهره ليس هو ذلك الحقيقة المطلقة الثابتة فيه وإنما الدلالة فيه متغيرة يسعى القارئ المؤول إلى القبض على تلايبيها، فمن تفكيك العقل أو اللوغوس انطلقت التفكيكية، فهي نزعة فكرية تحاول هدم الدلالة الأحادية في النص وتقويض أسسه وأركانه وهدم مقاصده الأولى ثم إعادة بناء دلالاته بطريق مباين ومختلف ومتنوع. ومن هنا يستفاد أن هذا المفكر الناقد استعان في تأويل النصوص على خلفية فكرية محضة انبثقت من أصول فلسفية امتدت جذورها من فلسفة اليونان الكلاسيكية القديمة إلى الفلسفة الحديثة الغربية، فعلى طريق سلفه شاء-هذا الرجل- أن يتناول بعض قضايا الشعر والأدب بوجه عام من وجهة نظره الفلسفية متبنيا إياها في تحليلها ومعالجتها ومناقشتها دائما إلى استكشاف خباياها وسبر أغوارها واستخراج ما ثبت فيها من معاني محتملة مُصَيِّرًا النص المغلق نصا مفتوحا يقبل تعدد الدلالات كما بين ذلك الدكتور-عبد الملك مرتاض- في قراءته لفكر-هذا الناقد- وتوجهاته الفلسفية التي أسس منها أركانا منهجية استعملها في تبني قراءة النصوص وتقويض دلالاتها المستفادة من ظاهر اللفظ لبناء دلالات خفية مستفادة خلف اللفظ الذي ينبنى به النص أو العمل الإبداعي أو المنجز الأدبي.

ولا يغفل على الناظر في هذا المنهج أنه انسل من المنهج النبوي ذاته ثائرا عليه، وقد قام هذا المنهج في دعواه على جملة من المبادئ لعل من أبرزها:

- عدم قصدية المؤلف في المعنى. وهذا ما يفتح الباب أكثر لتعدد القراءات، أو ما يسمى بلانهاية الدلالة، فاسحا المجال أمام التأويل، والهدم وإعادة البناء وقد نبه إلى ذلك-محمد شوقي الزين- من خلال قراءته وتحليله ومناقشته لطرح هذا الناقد التفكيكي وقد نص على ما ذكر في كتابه الموسوم-بالتفكيك، الخطاب-، فإقصاء قصدية المؤلف وإحياء وعي القارئ المؤول بتفاعله مع النصوص هو اللبنة الأولى التي تركز عليها العملية التأويلية.

- نفس الحدود والحوافز والحوائل القائمة بين النصوص، أو ما يعرف بالبين نصية، ويكون ذلك بإلغاء سلطة النص وتجريده من خلفياته التي انبنى عليها وتحويل السلطة إلى القارئ المؤول.
- التشكيك في القيم والثوابت؛ إذ زعزت التفكيكية النصوص بالشك وفندت اليقين المطلق فيها ورفضت التقاليد والقراءات المعتمدة، وذلك بالاعتماد على أسلوب الشك المنهجي وتعطيل اليقين من النص بزعة البنية الثابتة فيه ودحض القراءة الكلاسيكية القديمة القائمة على مركزية المعنى في العمل الأدبي.

7. السيميائيات والهرمنيوطيقا:

لا يخلو النظام السيميائي في تحليل العلامة ومعرفة ما تحيل إليه من دلالات يؤسسها تداول المعنى بتمثله في ذهن القارئ المؤول من عملية التأويل اللامتناهي للعلامة الواحدة التي تتشظى منها أكثر من دلالة واحدة بل هي دلالات غير منقطعة تستمر باستمرار فعل التأويل بحثا عن الترجمات المعنوية الكامنة في العلامة الواحدة والتي تفرضها إحياءات السلوكات الإنسانية باعتبار أن العالم هو نظام من العلامات حيث يهتدى إلى تصور دلالة هذه العلامات بوجود المؤول الذي يضع هذه الأخيرة داخل سيورة دلالية تداولية، وفي هذا الصدد يوضح -سعيد بنكراد- بأنه لا يمكن قطعا تصور إحالة تكتفي بإنتاج ما يعيننا على تعيين شيء مفرد في العالم الخارجي بعيدا عن إحياءات السلوك الإنساني. فالعالم الذي تحيل إليه العلامة عالم يستوعب داخل سيورة تدليلية تحيل على أكوام تأويلية بالغة التنوع. فبمجرد ما تتخلص العلامة من لحظة التأويل الأولى حتى تتطور في كل الاتجاهات. فالعلامة في تصور بورس، تضع للتداول ثلاثة عناصر: أول يحيل على ثان عبر ثالث هو نفسه سيتحول إلى منطلق لتوليد سلسلة من الإحالات الأخرى. فلا يمكن لهذه السلسلة من الإحالات أن تنتهي، نظريا على الأقل، عند نقطة بعينها. فكل إحالة تستدعي إحالة إضافية، وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية، فالعلامة وفق تصور -بورس- لا تكتفي بدلالة أحادية لو وجد المؤول، وإنما تحمل بين ثناياها سلسلة من الدلالات غير متناهية تحيل كل دلالة سابقة إلى لاحقتها داخل هذه السيورة التأويلية التي يسميها هذا الفيلسوف بالسيميوزيس ومرجع توليد المعنى مركز على القارئ المؤول كما بينا سابقا، وفي هذا الشأن يشير -سعيد بنكراد- إلى أن العلامة، وفق هذا التصور، لا تنتج دلالة أحادية مكتفية بذاتها ترتاح إليها الذات، بل تولد سيورة تدليلية بالغة المعنى والتنوع. فكل الإحالات ممكنة انطلاقا من فعل التمثيل الأول، أي الفعل الذي يضع الماثول ضمن حركة سميوزية تستند إلى المؤول باعتباره العنصر الحاسم في وجود الدلالة وتداولها، وبناء على هذا نختدي إلى أن إنتاج الدلالة داخل النظام السيميائي منحصر في الإجراء التأويلي أو فعل القراءة المنصوص عليه بالمصطلح المذكور سابقا بحيث لا ينفك هذا الأخير عن فعل القراءة والتأويل التي يشكلها القارئ المؤول في صناعة المعنى وتصور الدلالة بأنها إحالة لا متناهية ثم الحد من الغايات التداولية ووضع حدود للمعاني التي يمكن أن تحيل إليها أنظمة العلامات، بقول -سعيد بنكراد- في هذا الصدد: «فالأمر يحتاج، من أجل إدراك العمق التأويلي الذي تشتمل عليه نظرية بورس في السيميائيات، إلى إدراك المفارقة التي قد يحيل عليه التصور البورسي للدلالة. فهو، من جهة يتصور الدلالة باعتبارها إحالة لا متناهية، ومن جهة ثانية يقيد هذه الدلالة بغايات تداولية تقلص من حجم السيميوز وترسم لها حدودا، وأشار -سعيد بنكراد-

معقبا على ما أورده-بورس- إلى أن التصور الخاص للعلامة ولنمطها في إنتاج الدلالة هو مدخلنا الرئيس للحديث عن مفهوم غني للتأويل، إذ يستفاد من قوله هذا أن المنهج السيميائي البورسي موقوف على الإجراءات التأويلية في استنطاق النصوص وتحليلها ومناقشتها بالنظر في مكانها وأنه قائم بها في تصور المعاني بوجود القارئ المؤول كما سبق.

8. خصائص القراءة التأويلية:

من أهم الخصائص التي اختصت بها القراءة التأويلية عن غيرها من القراءات الكلاسيكية القديمة هي؛ التركيز على سلطة القارئ وإيلاؤه على المؤلف أو الناص وكذا إعطاء السلطة للنص باعتباره مفتوحا على عدة مقاصد دلالية يحتملها، فالتركيز على القارئ في تاريخ الأدب والنقد تبلور بالأساس في أحضان مدرسة جمالية التلقي، التي ردت الاعتبار للقارئ، بعد أن سلم القراء لزمن طويل بملكية الكاتب المطلقة لمعنى نصوصه. في هذا الإطار بدأ التعامل مع النص باعتباره عملا مفتوحا يزداد معناه إشراقا؛ كلما صادف قراءة ترفض التماهي والاستهلاك، علما أن النص متعدد بالضرورة، وأن تعدده ضامن خلود وتجدد الأدب وحيويته، ففعل القراءة والتأويل لا ينشأ إلا باجتماع ركنين أساسيين متلازمين هما؛ النص والقارئ المؤول فحقيقة القراءة التأويلية للنص الأدبي تتجلى في الممارسة الإبداعية الاستيعابية المنظمة التي تندمج فيها ذات المبدع بموضوعه، هذه الممارسة لم يكن لها أن تتأتى فعلا اعتباريا؛ وإنما جاءت فعلا إبداعيا منظما، ينطلق فيه (القارئ\المؤول) من ضوابط حكمة ومتحكمة، تفرضها مركبات النص المؤول أو المقروء كما صرح بذلك النقاد المعاصرون، ومن هنا نستنتج أن سلطة القارئ في لي عنق النص لا تخرج عن حدود النص وما يستلزمه من معاني فهو سلطة داخل سلطة تفرضها الخطابات والمنجزات الأدبية والفكرية والفلسفية التي تحمل في طياتها مرجعيات علمية وثقافية وخلفيات معرفية خاصة بها والتي لا يهتدي إليها القارئ إلا بفعل ممارسة العملية التأويلية.

9. علاقة التأويل بنظرية القراءة:

إنَّ الكتابة تستدعي فعل القراءة الذي يقوم عليه مفهوم التأويل، والقارئ في هذا الفعل إنما يأخذ دور المحاور داخل عملية الكلام تماما مثلما تأخذ الكتابة مكان العبارة المنطوقة والمتكلم معا، ومنه فالقراءة والتأويل هما مفهومان متداخلان، متلازمان منذ القدم، وإن كان النقاد القدماء بعاملة لم يتفطنوا تفتنا منهجيا للقراءة والتأويل. فكانوا يتأولون القراءة مما كان يوقعهم فيما يطلق عليه-أمبرتو إيكو- الاستعمال أو استعمال النص، لكن البعض يرى أن العلاقة بين الكتابة والقراءة ليست علاقة تخاطب ولا حالة خاصة للحوار، لذلك لا يكفي أن نقول؛ إن القراءة هي الحوار مع المؤلف عن طريق نتاجه المكتوب بل إن علاقة القارئ بالنص مخالفة لذلك تماما، فالحوار تبادل للسؤال والجواب في حين أن ذلك ينعدم في العلاقة بين القارئ والمؤلف، فالمؤلف لا يجيب عن أسئلة القارئ والقارئ يظل غائبا عن فعل القراءة، وإذا سلمنا بغياب الكاتب عن فعل القراءة تبين لنا من غير شك أن معنى النص وتأويله يتوقف على القارئ وعلى تعدد القراء. وأن مقولة القراء المختلفين وإمكانية تأثيرهم بطرق معينة وصور مختلفة لواقعية نص معين دليل على الدرجة التي تحول بها القراءة إلى عملية إبداعية.

فالنص الأدبي ينشط قدرتنا ويمكننا من إعادة خلق عالم جديد لهذا الأخير وأن نتاج هذا النشاط الإبداعي هو ما يمكن أن نطلق عليه البعد الواقعي للنص الذي يمنحه واقعيته. وهذا البعد الواقعي ليس النص نفسه ولا هو تخيل، إنما هو تمازج بين النص والتخيل القارئ. وفي هذا المعنى يتفق المنظر الكونستانسي-هانز روبرت يابوس - مع-رومان إنجاردن-، حيث يشير الأول إلى النص الذي أبدعه المؤلف فيما يشير القطب الثاني إلى الإدراك الذي يقوم به القارئ. وإن التقاء النص والقارئ هو الذي يأتي بالعمل الأدبي إلى الوجود ولكن هذا التلاقي لا يمكن تعريفه أبداً على نحو دقيق وفق ما يرى -إيزر- ولكنه لابد أن يظل واقعياً على الدوام وفي الأخير يمكن القول أن عملية القراءة في كل النصوص الأدبية هي عملية انتقائية وأن النص الكامل أغنى بشكل مطلق عن أي إدراك فردي.

إن القراءة الثانية للنص الأدبي غالباً ما تنتج انطباعات مختلفة عن الانطباع الأول وقد تعود أسباب ذلك إلى الظروف الخاصة بالقارئ، فعملية التأويل التي يقوم بها القارئ المؤول تجعل النص فيضاً من الدلالة والمعنى، فهو مشحون بالقصدية والهدفية، ويحيلنا إلى ذات مبدعة جميلة هي ذات القارئ المؤول، فهذه العملية تكشف عن المكون الذي تشتمل عليه ذات القارئ وتبرز المتخفي في النص، لأن هذا الأخير ما هو إلا نسيج من المرجعيات المتداخلة فيما بينها حيث يتجسد التأويل ضمن كل المسيرات الدلالية الممكنة وضمن السياقات التي ينتجها الكون الإنساني في العالم.

ومنه فإن طبيعة العلاقة بين القراءة والتأويل من حيث هما مفهومان متباينان في المفهوم مختلفان في الدلالة والوظيفة هو أن القراءة هي الجسر المؤدي إلى لحظة فعل يستدعيه فعل الكتابة، هذا الفعل الذي يخلق التذوق الأول للنص، أي؛ أن القراءة هي الفهم المؤدي بدوره إلى تأويل المتن الأدبي والكشف عن معناه المستتر، لذلك يمكن أن ندلي بأن القراءة وسيلة غايتها التأويل.

10. التأويل وتعدد المعنى:

لقد أدركت المناهج الحديثة اليوم أهمية جميع الأطراف في العملية التواصلية، فبعد أن كانت النصوص تنغلق على ذاتها ولا تمنح إلا ما أراحه المؤلف، جاء الاهتمام بالنص كنظام منفتح وبالقارئ كطرف أخير، فهذا المتلقي يتلقى إنتاجاً أرسله المبدع الأول الذي ستنتهي أهميته عندما يضع نقطة النهاية، لأن القارئ سيصبح بعد القراءة كاتباً جديداً ومبدعاً ثانياً تبدأ من قراءته عملية تواصل جديدة.

فالقراءة بمفهومها الحديث عملية تشكيل وبناء، أي؛ أنها تفتح المجال أمام القارئ لبحث عما هو غائب وعن الصلة بين البنية ومقصد صاحبها، هكذا سارت المناهج التي تسمح بالقراءات المتعددة للنصوص في الازدهار وعلى رأسها المنهج التأويلي الذي يفتح على الفهم، فالتأويل مفتاح للمعنى المتوالي والخفي وراء العبارات الظاهرة الجلية، فالنص الواحد بإمكانه أن يقول أكثر مما تدل عليه ألفاظه مباشرة.

11. مستويات التأويل:

- **المستوى المجرد:** هو الذي يرتبط بكون التأويل فعل إدراك أو تمثل المعنى عن طريق الفهم والتفسير أي؛ بوصفه بحثاً عن دليل غائب يعتبر موضوعاً للدليل الحاضر في الوعي.
- **المستوى الإجرائي:** وهو الذي يتجسد في صيرورة ذهنية من التفكير الجامع في الآن نفسه بين الدليل المدرك-شيء أو ظاهرة-وبين كل ما هو حاصل في وعي المدرك من معرفة مسبقة حول هذا الدليل ومن تمثيلات مزمنة للحظة الإدراك ذاتها-من الملاحظ أن هذا المستوى هو الذي يقبل أن يحدد فيه التأويل بوصفه طاقة ذهنية مرتبطة بقدرات الذوات وتفاعلاتها مع المقامات والسياقات والتواصل والمعارف الخلفية.
- **مستوى التأويل بوصفه تحققاً فردياً مخصوصاً:** يرجع هذا المستوى إلى شخص معين وهو يقدم خلاصة فهمه وقراءته لدليل ما-إنه المستوى الذي يسمح لنا بتمثيل التحلل آليات المستوى الثاني في ذهن هذا الشخص-.

12. أسس التأويل:

- يستند فعل التأويل إلى ثلاثة أسس هي:
- يعتبر النص ذاته أن له كيان ومكونات وعمق.
 - أن المعرفة النظرية تعود إلى تصورات الناقد أو المتلقي التي يملكها عن الوقائع الخاصة بالدلالة.
 - يقوم على ثقافة الناقد واستحضار مرجعيات النص، سواء أكانت ثقافية أو اجتماعية أو نفسية وهي ما ينتجها الإنسان عبر سلوكه من قيم ومعارف بأبعادها الرمزية والأسطورية في النص.

13. أهداف التأويل:

ليس التأويل مجرد شرح للفظ ولا تفسير لعبارة ولا فهم لمعنى من السطحية المتعجلة الوثيقة ولكنه يحيل على المفهوم الذي هو شبكة معقدة من الإجراءات وجهاز متطور من القنوات والأدوات التي بواسطتها نستطيع التحكم في نظام التلقي بحيث لا نستعمل النص المقروء ولكننا نؤوله تأويلاً.

ومن غايات التأويلية أنها تسعى إلى تجاوز النقد والعمد إلى تأويل النصوص أو المتون، ولعل من أوائل من عني بمفهوم التأويلية في العصر الحديث في الثقافة الغربية من حيث هي إجراء أداتي لتحليل النصوص الإبداعية وغير الإبداعية وقراءتها وفهمها فهما دقيقاً هما-فيلهام دالتاي-، وبالخصوص-إيثموند هوسرل-، حيث انتهيا إلى أن التأويلية تتسم في إجراءاتها وماهيتها بالتعددية واختلاف المعنى.

14. خاتمة:

ومن هنا فإن التأويل فعل محكم واستراتيجية تسعى إلى تحديد الطرق التي يتم بها تشكيل المعنى وتنظيمه داخل وقائع مادية قصد تداوله وتصريفه في أفعال وممارسات وسلوكيات معينة.

ومدار إنتاج المعاني وتوليد الدلالات موقوف على العملية التأويلية أو فهم الفهم ولا يتعين ذلك إلا بوجود القارئ المؤول.

إن التأويل هو عبارة عن عملية ذهنية ذات ارتباط وطيد بالقارئ الذي يسهم بدوره في صناعة النص المفتوح.

15. الهوامش:

- 1 - الرازي أبو بكر، مختار الصحاح، ط3، دار الرسالة، الكويت، 1983م، ص33.
- 2 - عامر عبد زيد، قراءات في الخطاب الهرمنيوطيقي، ط1، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص7.
- 3 - ينظر: فرناندهالين، فرانك شوبرويجن، من الهرمنيوطيقية إلى التفكيكية ضمن نظريات القراءة، ط1، دار الحوار، اللاذقية: 2003م، ص85.
- 4 - هانس جورج غادامير، فلسفة التأويل - الأصول، المبادئ، الأهداف -، تر: محمد شوقي الزين، ط2، منشورات الاختلاف، المركز الثقافي العربي، المغرب، ص62.
- 5 - أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، تر: سعيد بنكراد، ط2، المركز الثقافي العربي، المغرب: 2004م، ص5.
- 6 - بول ريكور، إشكالية ثنائية المعنى، تر: فريال جبوري غزول، د.ط، دار قرطبة للطباعة والنشر، الدار البيضاء: 1988م، ص140.
- 7 - جنات بلخن، السرد التاريخي عند بول ريكور، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة: 1434هـ-2013م، ص34.

16. قائمة المراجع:

- 1- أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، تر: سعيد بنكراد، ط2، (المغرب: المركز الثقافي العربي، 2004م).
- 2- بول ريكور، إشكالية ثنائية المعنى، تر: فريال جبوري غزول، د.ط، (الدار البيضاء: دار قرطبة للطباعة والنشر، 1988م).
- 3- جنات بلخن، السرد التاريخي عند بول ريكور، ط1، (الجزائر العاصمة: منشورات الاختلاف، 1434هـ-2013م).
- 4- الرازي أبو بكر، مختار الصحاح، ط3، (الكويت: دار الرسالة، 1983م).
- 5- عامر عبد زيد، قراءات في الخطاب الهرمنيوطيقي، ط1، (الجزائر: ابن النديم للنشر والتوزيع، 2012م).
- 6- فرناندهالين، فرانك شوبرويجن، من الهرمنيوطيقية إلى التفكيكية ضمن نظريات القراءة، ط1، (اللاذقية: دار الحوار، 2003م).
- 7- هانس جورج غادامير، فلسفة التأويل - الأصول، المبادئ، الأهداف -، تر: محمد شوقي الزين، ط2، (المغرب: منشورات الاختلاف، المركز الثقافي العربي، د.ت).